زينة «قدّيسة» رومية

بيار أبي صعب

«الجنون» مادة مسرحيّة بإمتياز. الفرنسي أرمان غاتي والبرازيلي أوغوستو بوال، اشتغلا كل من موقعه، في مصحّات نفسيّة. غاتي يقول إنّه عاش خلال تماسه مع «ممثليه» هناك، أرقى لحظات الشعر. المعلّم البريطاني بيتر بروك إهتمّ أيضاً بـ «الجنون». ليس عمله المستوحى من كتاب عالم النفس أوليفر ساكس «الرجل الذي كان يظنّ زوجته قبّعة»، إلا محطّة أساسية في مسيرة، تبقى ذروتها تجربته مع نص بيتر فايس «مارا - ساد» التي تعتبر من روائع الفنّ الرابع. تدور المسرحيّة في مصح للأمراض العقليّة، حيث يقوم الماركي دو ساد بإدارة «المرضى» الممثلين في عمل من تأليفه عن الثورة الفرنسيّة. عبقريّة بروك كانت في الحفر داخل الشرخ، في التقاط هذه الهشاشة لدى الممثّل، حين يعرى من ذاته ليتقمّص ذوات الآخرين. ما هو الجنون إذا لم تكن تلك درجته الصفر؟ الممثل دائماً على حافة الجنون، والكائن البشري يقف أيضاً على هذه الحافة غير المنظورة بين العقل واللامنطق. ضربة تكفي كي ينتقل من ضفّة إلى الأخرى! الجنون جرح خطير في الوجدان. وجدان انسان اختبر ظلماً عظيماً لا يمكن الاحتجاج عليه الا بالانسحاب من العالم المنطقي، والارتماء في أحضان العبث، واختراع «منطق» جديد لا علاقة له بنا، «نحن» من نظنّ أنفسنا عاقلين ومتوازنين، ما دمنا خاضعين للمنظومة المهيمنة!

ما فعلته زينة دكّاش في عملها الجديد، يتجاوز مسرحة هذا الخلل العظيم. إلى «المجانين» أضافت «المجرمين» (حسب اللغة المهيمنة طبعاً)، كي تُراكِم الجراح الانسانيّة المحجوبة عادةً عن أنظارنا المستقيمة الشريفة. يبدأ العرض من نزلاء «المبنى الأزرق» في سجن رومية، وهو «المأوى الاحترازي» الأوحد في لبنان، للمحكومين المصابين بإضطرابات نفسيّة، فيه يموتون ببطء منسيين من العالم، معتقلين «لحين الشفا»: أي إلى الأبد! اشتغلت معهم بصبر وحب، وغيريّة مدهشة. لملمت حكاياتهم الصغيرة، ثم أعطتها لسجناء «أصحّاء»، بعضهم محكوم بالمؤبد أو الاعدام، ومنهم يوسف شنكر من عملها السابق في رومية «12 لبناني غاضب» (2009). شنكر ما زال هنا، وسيفتتح العرض بمونولوغ عن «المؤبّد» والزمن الهارب. أشباح «البيت الأزرق» لا تظهر إلا عبر شاشة فيديو. رجال ضعفاء غائبون عن أجسادهم، تركوا حطام حيواتهم للسجناء الجدعان، كي يعيشونها عنهم (بالاذن من عباس بيضون). كي يشخصونها «لنا»: نحن أي «الجمهور» الطليق المعافى (نخبة النخب من أهل قانون وأمن وسياسة واعلام ودين وطب)، سنعيش «مغامرة خاصة». إنّها لمغامرة خاصة حقّاً، ولوج الأبواب السوداء الشاهقة. سنشاهد قصصاً جارحة، مثل قصّة صاحب «جوهر» الحمار البريختي «المخطوف لدى إسرائيل»، وقد انبعث أمامنا بألوان زاهية على جدران «الزنزانة» الضيّقة التي صارت قاعة مسرح. تعتدي علينا المخرجة. ترصف المشاهد السوداويّة، المؤذية عاطفيّاً، بالتواتر مع المواقف المضحكة. تؤسلب العنف، تحشد الرجولة الزائدة التي تعتريها أنوثة اصطناعيّة أحياناً (عبر أدوار التحوّل الجنسي). في «مسرح القسوة» هذا (تحيّة إلى أنطونان آرتو نزيل مصحّ روديز أوّل الأربعينيات)، نستعيد جراحنا الجماعيّة والفرديّة، نتأمّل انسانيّتنا المفترضة، نفكّر في الذنب والعقاب، والمسؤوليّة والحريّة. لكن هذا العمل الخاص همّه الأوّل ممثلوه. هؤلاء المحطّمون الذين وضعهم المجتمع على هامشه ليتبرّأ من شراكته في ذنوبهم، تقوم زينة باعادة ترميم ذواتهم المنهارة عبر مرآة السرد والتشخيص، في لعبة دراميّة بنَتْها لبنة لبنة على امتداد أشهر طويلة. التمثيل يحررهم، يعالجهم، يجعلهم يستعيدون مسؤوليّتهم المدنيّة، وانسانيّتهم المقموعة، ثقتهم وكرامتهم، وغيريّتهم إذ يعيرون أجسادهم وأعصابهم وانفعالاتهم، لزملاء عاجزين عن التمثيل... ألسنا هنا أمام جوهر الفنّ المسرحي؟

أي زينة دكّاش نحبّي؟ الفنانة الاستثنائيّة بمقدرتها على ادارة الممثلين الهواة (علاقتها التفاعليّة بهم خلال العرض بليغة)، وتحويل القصص والمآسي والأوجاع إلى دراما وكاراكتيرات، وخلق مشاهد من عيون الفرجة المسرحيّة؟ أم مديرة جمعيّة «كاثارسيس» للعلاج بالدراما التي تمضي وقتها في أقبية الشقاء، بحثاً عن جذوة الانسانيّة؟ أم المناضلة الاجتماعيّة التي تساهم عبر عملها مع حقوقيين وقضاة وبرلمانيين، في تطوير القوانين، وجعلها أكثر حضاريّة وعدالة؟ لنرفع قبّعاتنا لزينة، «قديسة» رومية التي تجترح الأعاجيب بالفنّ.

فنون مشهدية بين المجتمع العنيف وواقع السجن الأعنف، يقبع هؤلاء. يشرّح عرض زينة دكاش الجديد المجتمع وحروبه وماضيه وأعرافه. مشاهد تحاكي عبثية الأحكام والقانون، ومَن أمضوا حياتهم وحيدين داخل جدران المبنى الأزرق

زينة دكاش أدخلتنا «جوهر» الحكاية

من العرض (باتريك باز)

روان عز الدين

جيم موريسون ومايكل جاكسون كانا هناك، يساندان مجموعة عازفين وقفوا لاستقبال الجمهور بموسيقاهم. «الناس غرباء» تقول الأغنية. كذلك المتفرجون داخل الغرفة الضيقة في سجن رومية التي احتضنت أخيراً عرض مسرحية «جوهر في مهب الريح» (توقيع المخرجة والممثلة زينة دكاش ـ الأخبار 11/5/2016). يوسف شنكل لا يزال يرتدي البذلة الرمادية مع ربطة العنق. إنها الثياب نفسها التي قابل فيها الجمهور في «12 لبناني غاضب» قبل سبعة أعوام. مع ذلك، يجب الاعتراف بأن هناك ما تغير حقاً، كتسريحته الستينية التي كانت لا تزال تلازمه حتى وقت قريب، قبل أن يستبدلها نزولاً عند نصيحة بعض السجناء الجدد. صار يوسف عماً من دون علمه. كبرت ريما ابنة أخيه وتزوجت. زوجته الأولى أيضاً تزوجت وأنجبت طفلين. قدما أمه استسلمتا لطريق السجن الوعرة، بينما لا يزال يطارد ذاكرته من وراء القضبان منذ 25 سنة. في «جوهر في مهب الريح» الذي يعرض داخل «سجن رومية» (جبل لبنان)، تفقد السنوات هولها ظاهرياً بسبب الخفة التي يعلن فيها السجناء مدة أحكامهم. العرض الجديد هو الجزء الثالث في سلسلة «قصة منسيين خلف القضبان» الذي تعمل عليه «كاتارسيس» منذ عام 2007، ونتج عنه «12 لبناني غاضب» (2009) مع سجناء رومية (وشريط بالعنوان نفسه)، ثم 2012 مع سجينات بعبدا في «شهرزاد ببعبدا» الذي تبعه شريط تسجيلي أيضاً. 40 سجيناً جاؤوا لينقلوا قصصهم المعلّقة، بعد جلسات علاج بالدراما استمرت لسنة ونصف السنة مع دكاش. إلى جانب هذا العلاج، تسعى المخرجة والممثلة اللبنانية إلى تعديل قانون المحكومين بالإعدام والمؤبد، والمرضى النفسيين والعقليين الذين يقبعون داخل المبنى الأزرق في انتظار الشفاء المستحيل.

وأمام غياب السياق الدرامي عن العرض، تتوالى المشاهد العبثية والمجرّدة المقطّعة. مشاهد تحاكي عبثية الأحكام وتطبيق القانون وتأخير المحاكمات وعبثية من قضوا حياتهم وحيدين داخل جدران المبنى الأزرق بعد 45 عاماً من الإقامة فيه. يتضمن العرض المتعدد الوسائط مشاهد راقصة (تصميم وتدريب بيار خضرا) وغنائية ومونولوجات، إلى جانب مقاطع فيديو لسجناء المبنى الاحترازي، ومشاهد من عرض «12 لبناني غاضب». مع الإضاءة الضئيلة التي تولى تصميمها بعض السجناء أيضاً، تتسرّب قصص بعض المساجين بأجسادهم العارية. يستعيرون شخصيات سكان المبنى الأزرق. تلك العبارة التي تخفيها خطابات السجناء بينما يعترفون بخطاياهم، ويعرون حيواتهم. تتماهى قصص السجناء الشخصية والحميمية مع سيرتنا الجماعية المصدّعة. وفيما يقع السجناء فريسة التعميم، وذوبان شخصياتهم وملامحهم أمام التنميطات، تسعى زينة دكاش إلى أنسنتهم مع نقد للقانون والدعوة إلى تعديله. هكذا تنبش قصصهم الشخصية والحميمية، وسماتهم الإنسانية الجميلة التي يبدو الجرم أمامها محطة فحسب. في اختيارها للقصص، تتجاوز دكاش فعل الجرم المباشر، ليبدو عملها أشبه برحلة بحث عن أرواح السجناء الأولى قبل أن يُدفعوا إلى ارتكاب الجرائم، وبعدها. الشاب المحكوم بالمؤبد الذي ساعد أخته على الزواج من الرجل الذي تحبه في مجتمع

> تتماهى قصص السجناء الشخصية والحميمية مع سيرتنا المصدّعة

لا يسمح للنساء إلا بالزواج من أبناء عمومهن. شاب آخر ينتظر إعدامه بينما يتولى الاهتمام بنظافة وطعام أحد سجناء المبنى الاحترازي. بين المجتمع العنيف وواقع السجن الأعنف والاستهتار في تصنيف المساجين داخل غرف ملائمة لتهمة كل شخص، يقبع هؤلاء. يشرّح العرض الكامل المجتمع وحروبه وماضيه. إنها قصص بلا نهايات، قصص واعترافات وموت لاحق ومصارعات دائماً للانتحار. يوظف العرض الذاكرة الشخصية لمواجهة النسيان، مقدماً مقاربة ترزح بين العام والخاص. الطفيلي وخليل وفاطمة ومتحول جنسياً وضابط سابق وجدوا نفسهم خلف جدران القلعة الداكنة. بين الاحتلال الإسرائيلي، والحرب الأهلية والفقر الرهيب، والعنف، تتهاوى وجوه المساجين. طفيلي الرجل الأربعيني حاضر بيننا من دون أن يأتي. يظهر السجين موهبة لافتة في أداء شخصيته. يستعيد الرجل ذكرياته في «ديسكو سلوى» في بعلبك، وقصة حبه المجهض، والمجتمع المهمّش في مشاهد الداية التي كانت تضع القنبز للأطفال، وكانت سبباً في إدمانه على المخدرات لاحقاً. هكذا يتحوّل العرض إلى خزان لمآسينا الجمعية، الفقر الرهيب، والعنف، والظلم، والحروب المتتالية. في تلك الأماكن من الذاكرة تتحرك أحداث العرض. خليل الذي صادر الأمن دراجته النارية، قُتل حماره في القصف الإسرائيلي، لكنه بعث من جديد بعد سنوات في مسرحية «جوهر» التي تدور أحداثها في لبنان «المريض نفسياً» كما قال أحمد، في نهاية العمل. أحمد لا يزال ينتظر محاكمته حتى الآن!

«جوهر في مهب الريح»: 15:00 بعد ظهر اليوم و25 أيار (مايو) ـ على أن يقدم فيديو العرض بعد شهرين في إحدى الصالات في بيروت ـ للاستعلام: 03/162573.